

آثار هزيمة حزيران في القصة العربية القصيرة

بقلم محمد درويش

في مختلف البلدان العربية ، ان عملية اعادة النظر هذه ، التي اتخذت طابع التحدي ، قد اذت ، رغم كل التطرفات والمبالغات ، الى ما يلي :

– أولاً : التصاق اكثر بالواقع المتحرك نفسه ، وجرأة في القول والانتقاد ، وحسم في ابتداع وممارسة اشكال جديدة .

ثانياً : كما اذت ، من ناحية أخرى ، عند بعض كتاب القصة ، الى تضخيم الاحساس بالعربة ، والمرارة ، والانسحاق ، والاحتجاج البائس ، والعبثية .

ثالثاً : وأهم من هذا كله : لقد تحطمت ، في هذه المرحلة على الاقل ، والى مدى طويل ، تلك الموضوعة المثالية حول انفصال الفن والفنان عن المجتمع ، وسقطت الورقة الصفراء لنظرية « الفن للفن » . وهذا ليس فقط على صعيد النظرية الفنية ، بل خصوصاً على صعيد النتاج الابداعي الفعلي نفسه للكتاب والشعراء والقصاصين .

– ٤ –

● كيف انعكست هذه الاحداث في القصة العربية القصيرة ؟

– نستطيع أن نقرر : ان أحداث حزيران ، وما بعدها ، قد انعكست ، بهذا الشكل أو ذاك ، في موضوعات أكثرية القصص العربية الحديثة . وان القصة العربية القصيرة تعيش الان مرحلة ازدهار واسع ، خصوصاً من حيث كمية الانتاج القصصي ، وكذلك من حيث التجريب والبحث عن اشكال جديدة .

وقد تجلى هذا في عدة انواع قصصية :

– أولاً : القصص التي تصور وقائع الهزيمة في الجبهة ، ووقائع حركة المقاومة الشعبية المسلحة ضد الاحتلال الصهيوني .

وهذه أول مرة ينتج فيها القصاصون العرب ، على نطاق واسع ، قصصاً عن المعارك الحربية . لهذا فان هذا النوع يحمل معه كل حرارة الريادة وصدقها ، وكل عيوبها أيضاً .

فكثير من هذه القصص ، أشبه بربور تاجات لمراسل حربي في الجبهة ، وبعضها زاهر بتخييلات تدل على ان الكاتب يخترع أحداثاً ، دون تجربة ملموسة ، ودون أن يعيش – ولو روحياً وفنياً – هذه الاحداث . .

– ١ –

● لا يمكننا (✕) أن نعتبر هزيمة « ه حزيران » المأساوية ، حداً فاصلاً بين مرحلتين في الادب العربي . فالادب العربي لما بعد الخامس من حزيران هو امتداد طبيعي لادب ما قبل حزيران .

ولكننا لا نستطيع – في الوقت نفسه – ان نفعل التأثير الحاسم لاحداث حزيران في الادب العربي ، ليس فقط من ناحية موضوعات الاعمال الادبية – من قصة وشعر ورواية – بل كذلك من حيث الصياغة والبناء والاشكال الفنية لهذه الاعمال .

● بعد هزيمة حزيران ، نتيجة للعدوان الصهيوني الاستعماري ، انطلقت في العالم العربي كله ، حركة لاعادة النظر في كل شيء : تركيب المجتمعات العربية . . العقلية والافكار السائدة . . والتراث وقيمه . . الانظمة التقدمية العربية الجديدة وما فيها من نواقص وأخطاء ومكاسب وطرائق حكم . . . وكذلك سرت موجة لاعادة النظر في مضامين واشكال مختلف الانواع الادبية ، وسلطت اضاء النقد ، والانتقاد الذاتي ، على مختلف القيم ، والمؤسسات ، والاعمال الفنية ، والافكار . . .

● وانطلقت ، خصوصاً ، حركة المقاومة المسلحة ضد الاحتلال الصهيوني ، يشترك فيها ، الى جانب قوى الشعب الفلسطيني ، قوى من مختلف البلدان العربية .

– ٢ –

● هذه التحركات كلها ، لم تنعكس فقط كموضوعات للقص الجديدة في البلاد العربية ، بل انعكست أيضاً كحركة داخلية في مضامين وابنية واشكال القصة العربية الجديدة .

● وهذه الاحداث نفسها ، أعطت الكتاب والشعراء العرب ، اجمالاً ، دفعة قوية جريئة نحو الابتكار والتجديد ، في محاولة تمردية على كل ما سبق من مضامين واشكال ، الى حد التطرف والرفض الكامل لكل ما سبق ، ثم البحث المحموم عن اشكال ومضامين جديدة .

– ٣ –

● يمكننا القول ، استناداً الى النتاج القصصي نفسه

(✕) نقاط وملاحظات اقيت في الندوة التي عقدت في موسكو من ١١ الى ١٣ ايلول ١٩٦٩ بين وفد اتحاد الكتاب اللبنانيين ووفد اتحاد الكتاب السوفيات .

على ان في بعض هذه القصص، محاولة جادة، لابداع شخصيات حية ، مأساوية ، لها صفاتها المميزة وغناها الروحي ونموذجيتها ، مثلا :

– في قصة « أحران حزيان » لسليمان فياض ، جندي فقد ساقه في المعركة ، فانزوى في بيته يعد الايام في انتظار ان يعيد الشعب أرضه المقتصبة .. انه يتسلى بصنع قطع سلاح من الخشب ، يتذكر وقائع الفاجعة في سناء ، يحترق غضبا وشوقا الى النصر .. كأنه رمز لشعب مكبل محروم من فرصة الدفاع عن نفسه واستعادة أرضه .

– وفي قصة « الارجوحة » لمحمد خضير ، جندي قادم من الجبهة ، يحمل خبر موت صديقه الى عائلة هذا الصديق .. انه يعرف ، من خلال احاديثهما في الثكنات، كل شيء عن هذه العائلة ، الزوجة ، والام ، والابنة الصغيرة الحلوة .. وعندما وصل أخذ يلعب الابنة ، يتأرجح معها على ارجوحة نصبت بجانب النهر ، يشعر كأن روح الاب الشهيد تصعد من كل مكان ، يشعر كأنه هو رب هذه العائلة ، وكأن روح صديقه تجسدت فيه وفي كل شيء من حوله .

– قصة « خوذَة لرجل نصف ميت » لاحمد خلف ، تختلف عن غيرها من هذا النوع ، فليس فيها تلك المبالغات البطولية ولا فيها ذلك البكاء والتفجع على ما حدث . انها تصوير صادق لمأساة الحرب : رجل يتشوه وجهه في الجبهة ، يعود الى بيته .

امراته في العشرين من عمرها . هو يريد هذه الحرب ضد أعداء وطنه ، والحرب نفسها شوهته فلم يعد قادرا على الخدمة والقتال ، ولم يعد قادرا على العيش هكذا، مع زوجة شابة .. وفي محاولة يائسة يطلق النار على الساعة ، على الزمن ، على الزمن يتوقف .. على ان الزمن يتابع سيره ، ورفاقه يتابعون المعركة .

في هذه القصص ، وكثير غيرها ، في طليعتها قصة « اوراق شاب عاش منذ ١٠٠٠ عام » لجمال الفيظاني ، نعيش مع شخصيات مأساوية خلقتها ظروف الحرب والهزيمة .

● القسم الثاني من هذا النوع القصصي ، هي القصص التي تصور حركة المقاومة المسلحة ، سواء في تناميها ، وحركة الانضمام اليها ، ام في معاركها ضد الاحتلال .

ولعل هذا النوع من قصص المقاومة هو الاكثر اصالة والاكثر تشابها أيضا : فهذه التجربة تجري على نطاق واسع في البلاد العربية ، مما يتيح للقصاصين ان يكونوا على تماسٍ اكثر بالاحداث والاشخاص والقضايا .

ويكاد هذا النوع يتشابه من حيث الحركة العامة للحادثة : فان معظم هذه القصص يصور شبابا مثقفين ، أو شفيلة عاديين ، تركوا دراساتهم وأعمالهم وتوجهوا للالتحاق بالفدائيين .

والتركيب النفسي لهذه القصص متشابه أيضا : انفعال

بالهزيمة .. عذاب ومعاناة .. انطلاق حاسم نحو العمل الفدائي . كذلك تتشابه نهايات هذه القصص : « .. ثم ترك كل شيء ، وانطلق تحت أشعة شمس جديدة » .. أو انطلق في اخر الليل يستقبل الفجر الجديد » ..

● ولكن ، ضمن هذا الاطار العام ، نجد الكثير من القصص التي تتجلى فيها قدرات فنية وتشكيلية على خلق الشخصيات الحية ، والاجواء ، والافكار كذلك ، في بناء فني معاصر ، تنعكس فيه وتيرة العصر ، وتيرة المعركة ، وعنف المأساة والتمزقات ، وعمق الامال :

– نلمس هذا ، مثلا ، في قصة « العراء » للدكتور سهيل ادريس ، حيث يصور انعكاس المأساة ، مثل كابوس حاد ، في أعماق مثقف عربي ، وذلك بأسلوب جديد ، متوتر ، وتركيب قصصي معاصر يضع القارئ في جوٍّ مأساوي ينبض بالامل .

– ونلمس هذا ، أيضا على سبيل المثال ، في قصة « الصديق » لمحمد عيتاني ، حيث يتعري الموت في المعركة، وتبدد عنه كل الصفات الرهيبة القديمة ، ويتحول الى شيء عادي ، يعيش معه الفدائي كل يوم وكل لحظة حتى يعتاد عليه كما يعتاد المرء على صديق يلتقيه دائما ..

– ونلمسه كذلك في الكثير من قصص غسان كنفاني الاصيل ، خصوصا في مجموعته « عن الرجال والبنادق » حيث يتناول شخصياته الحية من داخل الاحداث نفسها .

● والملاحظة العامة : ان اكثر هذه القصص ، ذات المستوى الفني ، اعتمدت من حيث الشكل : تداخل الأزمنة، والمونتاج السينمائي ، والجمل القصيرة المتوترة، بحيث لا يمتلك القارئ احداث القصة ومضمونها الا بعد قراءتها كلها واجراء عملية ذهنية ، ممتعة ، لاعادة تركيبها ، فاذا هذا القارئ يشارك أيضا في عملية الخلق نفسها .

ونحن اذا أخذنا مجموع هذه القصص ، على ما في بعضها من ضعف فني ، نجد انها تصور بصدق ، وبحرارة ، وبشاعرية مأساوية ، ملحمة شعب زلزلته الهزيمة .. ثم أخذ يتجمع ، ويتسلح ، ويستعمل السلاح في حركة مقاومة شعبية ليحرر أرضه المقتصبة .

– ٥ –

● النوع الثاني من قصص ما بعد حزيان ، هي القصص التي أخذت موضوعاتها من الحياة الداخلية للبلدان العربية ، وسلطت الاضواء ، بعمق في غالب الاحيان ، على كثير من الاسباب الاجتماعية والسياسية والايديولوجية والنفسية التي كانت في أساس الهزيمة ، والتي تعاني منها مجتمعاتنا العربية .

– في طليعة هذا النوع القصصي الجديد ، العميق والجريء معا ، تبرز القصص الاخيرة لنجيب محفوظ التي أصدرها في مجموعته الجديدة « تحت المظلة » .

هذه القصص هي متابعة لمعركة الكاتب ضد الفساد الموروث ، وضد الفئة الجديدة (البيروقراطية) المنتفعة بالثورة ، ضد اللامبالاة ، وضد التردد في التغيير الثوري

لكل أسس المجتمع القديم .. وهي تمزق الكثير من الإقنعة ، ولا تكتفي بادانة البيروقراطية بل تصل الى حد ادانة ذلك القسم من الشعب نفسه الذي لا يبالي بما يراه امامه من مخاز ترتكب باسمه وباسم الثورة .

لقد استطاع نجيب محفوظ ، هذا الكاتب الكلاسيكي أن يتطور مع الزمن ، بجرأة وجدارة ، سواء من حيث المضمون الفكري لادبه ، أم في شكل صياغة هذا الادب ، واستخدام مختلف الاشكال الحديثة ، وابتداع اشكال جديدة ، باصالة الفنان الجاد المسؤول عن كلمته وموقفه .

● هذه القصص - المبضع ، نجدها أيضا عند عدد من الشبان الجدد ، في مصر خصوصا ، وفي العراق وسوريا ، الذين يكشفون ، بجرأة وقسوة ، عن مختلف القروح الفاسدة في مجتمعاتنا ، والذين يعطون ، من ناحية ثانية ، صورة صادقة - رغم كل مبالغاتها - عن الازمة العميقة التي يعانها الشباب ، عن الضياع ، والقلق ، والبحث المحموم ، واليأس أحيانا ، عن طريق للخلاص ضمن اطار من الاحلام والتطلعات البرجوازية الصغيرة .

● ضمن هذا النوع القصصي ، نجد أيضا الانعكاس السلبي لاحداث حزيران .. نجد القصص التي تتباعد في التأكيد على غربة الفرد ، ولا جدوى الكفاح ، واليأس القاتل ، والعبث ، وأن لا خلاص .

ونجد القصص التي تتخيل الخلاص في العودة الى العقائد الفيبية ، وتسليم الامر لها !! .. كما في قصة « الكابوس » لامين شتار مثلا .

ورغم سلبية هذا النوع القصصي ، فهي أيضا تحمل صرخة احتجاج ضد اسباب التخلف ، والعلاقات غير الانسانية ، وكبت حرية الافراد والجماعات .

واكتفي هنا بمثل واحد ، هو قصة « كما تمر بماء آسن » لفرّاد كنعان ، الذي يملك قدرة فنية ولفوية ممتازة وامتناعا قصيا اصيلا . ففي قصته هذه يخلق نموذجا طريفا للشخص العبثي ، وكيف ان احداث حزيران ، واحداثا لبنانية أخرى ، انعكست على ذهن هذا الشخص فزادته عبثية وامعاناً في تبرير كل يأس من أي تقدم . مع هذا فان هذه القصة نفسها ، وغيرها من النوع ذاته ، تشكل ادانة حادة للمجتمع البرجوازي المتعفن ، حيث الفرد البرجوازي ، كما تصوره القصة ، يتاجر بكل شيء .. بالوطن ، والاستقلال ، والشرف ، والكرامة ... من اجل كيس النقود ...

٦ -

● نصل الى القسم الثالث ، المشرق ، للقصة العربية الحديثة بعد حزيران ، ونعني هنا القصص التي يكتبها أدباء عرب داخل أراضي فلسطين المحتلة ، أمثال : أميل حبيبي ، وتوفيق فياض ، ومحمد نفاع ، ونبيل عودة ، وغيرهم .

هذه القصص ، تمتاز قبل كل شيء ، باصالة التجربة وصدقها وحرارتها . شخصيات هذه القصص واضحة وعميقة معا بقدر ما هي حقيقية ، رغم ان الكثير من هذه

القصص ، من حيث الشكل ، لا تزال في مرحلة السرد العادي البسيط ، باستثناء قصص توفيق فياض في مجموعته و« الشارع الاصفر » وخصوصاً باستثناء قصص اميل حبيبي صاحب « سداسية الايام الستة » . ان هذه « السداسية » التي تضم ست اقصيص يرتبط بعضها ببعض فتشكل شبه رواية من نوع جديد ، هي حتى الان ، من أجمل وأمتع ما كتب من قصص عربية بعد احداث حزيران ، تصور تأثير هذه الاحداث في قطاع واسع من الناس العرب سواء داخل الارض المحتلة أم خارجها .. انها تروي بابداع واصالة حكاية ذلك الحنين المكبوت طوال عشرين عاما ، في قلوب أبناء الشعب الفلسطيني في الداخل والخارج .. حنيني للأرض والاهل والاجاب ، تفجر مع احداث حزيران ، وبعدها ، فاذا هذا الشعب ، الذي حاولوا سحقه وتذويب روحه ، ينهض من جديد ، حيا ، شجاعا ، يستجمع قواه ، يناضل ليلف حوله كل انصار الحرية والتقدم في العالم ، ليحرر أرضه المغتصبة من وطأة النازية الجديدة التي تدعى : الصهيونية .. وبناء دولة فلسطينية ديمقراطية ، متحررة من العنصرية وروح الاغتصاب .

وهذا هو المضمون الاساسي لمعظم القصص العربية القصيرة التي شهدت ازدهارا واسعا في السنتين الاخيرتين على نطاق العالم العربي .

محمد دكروب

منشورات جديدة لدار العودة

- | | |
|-----------------------------------|--------------|
| ١ - اوراق الزيتون | محمود درويش |
| ٢ - كراسة فلسطين | معين بسيسو |
| ٣ - اغاني الدروب | سميح القاسم |
| ٤ - آخر الليل | محمود درويش |
| ٥ - ام درمان السيف والمنجل والنغم | توفيق زياد |
| ٦ - عرس الزين | الطيب الصالح |

تطلب من دار العودة . بيروت شارع مار منصور.

بناية بنك بيروت والبلاد العربية .